

مع سورة القيامة



د. خالد النجار

مع سورة القيامة

د. خالد النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مع سورة القيامة

عنوت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة بـ «سورة القيامة» لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها، ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور. وقال الألوسي: يقال لها «سورة لا أقسم»، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.. وهي مكية بالاتفاق.

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ
نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ
لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)

﴿لَا أُقْسِمُ﴾ «لا» إما مزيدة للتأكيد. وتقوية للكلام، كقول: "لا والله"، وقد عهدت زيادتها في كلامهم.

وإما ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحققين. ويقال أن كل يمين قبلها رد كلام فلا بد من تقديم ﴿لَا﴾ قبلها ليفرق بذلك بين اليمين التي تكون جحدا واليمين التي تستأنف، ألا ترى أنك تقول مبتدئا: "والله إن الرسول لحق" وإذا قلت: "لا والله إن الرسول لحق" فكأنك أكذبت قوما أنكروه. قال ابن كثير: المقسم عليه إذا كان منتفيا، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد.

ولعل أرجح هذه الأوجه كلها أنها لتوكيد القسم كما ذكر ابن جرير عن نحوي الكوفة والله تعالى أعلم.

﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم تستشرف له نفس السامع، كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن. وَكَوْنُ القسم بيوم القيامة «براعة استهلال» لأن غرض السورة بيوم القيامة.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ المراد نفوس المؤمنين. ووصف «اللوامة» مبالغة لأنها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة.. فهذه نفوس خيرة حقيقة أن تشرف بالقسم بها. ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة إنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم.

قال الحسن البصري: إن المؤمن -والله- ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه. وعن سعيد بن جبير: تلوم على الخير والشر. وعن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.

وقال جُوَيْر: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. قال القاشاني: جمع بين القيامة والنفس اللوامة، في القسم بهما، تعظيماً لشأهما، وتناسباً بينهما؛ إذ النفس اللوامة هي المصدقة بها، المقررة بوقوعها المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبدأً في التقصير، والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت، لحرصها على الزيادة في الخير، وأعمال البر، تيقناً بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسياناً.

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿أَلَّنْ﴾ «لن» حرف دال على تأكيد النفي لحكاية اعتقاد المشركين استحالة جمع العظام بعد رمامها وتشتتها. ﴿تَجْمَعُ عِظَامُهُ﴾ الجملة جواب القسم.. أي: أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة يوم القيامة؟!

والعظام: كناية عن الجسد كله، وإنما خصت بالذكر لحكاية أقوالهم: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:78] ﴿أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ [الاسراء:49] ﴿أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات:11] فهم احتجوا باستحالة قبول العظام لإعادة بعد البلى، على أن استحالة إعادة اللحم والعصب والفؤاد بالأولى. فإثبات إعادة العظام يقتضى أن إعادة بقية الجسم مساو لإعادة العظم، وفي ذلك كفاية من الاستدلال مع الإيجاز.

وجاءه الجواب: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:79].

﴿بَلَى﴾ حرف إبطال للنفي ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ﴾ والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:7] وقال في هذه السورة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة:38]. وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة. ﴿بَنَانَهُ﴾ بلى! نجمع عظامه، وقادرين تسوية بنانه التي هي أطراف خلقته وقمامها، على صغرها ولطافتها، وضم بعضها إلى بعض، فكيف بكبار العظام؟.. وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام بيوم القيامة.

﴿بَلْ﴾ إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم. ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانَ﴾ إخبارا عما في نفوس أهل الشرك من محبة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور والتكذيب. ﴿لَيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ الفجور: فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة، وروي عن ابن عباس: الكافر يكذب بما أمامه من يوم الحساب.

والمعنى الأغلب: يريد أن يبقى على الفجور فيما يستقبل من أيام عمره، قال ابن جبير: "يقدم الذنب ويؤخر التوبة. يقول سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله".

وفي فتح القدير للشوكاني: "والمعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتد عمره، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه، قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي، وسعيد بن جبير: يقول: سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت، وهو على أشرف أحواله، قال الضحاك: هو الأمل، يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت، والفجور: أصله الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل". اهـ.

وقال القاشاني: أي: ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية، والشهوات البهيمية، غارزاً رأسه فيها، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها، متعنتاً مستبعداً إياها، كما قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ﴾ اسم استفهام عن الزمان البعيد، بمعنى: «متى».

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متى يكون؟ استبعاداً وهزواً، وتكذيباً لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدِمُونَ﴾ [سبأ: 29-30].

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (15)

عدل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهددوا بأهواله، لأنهم لم يكونوا جادين في سؤالهم فكان من مقتضى حالهم أن يندروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم مع تضمين تحقيق وقوعه، فإن كلام القرآن إرشاد وهدى ما يترك فرصة للهدى والإرشاد إلا انتهزها.

وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرطوا في التوقي من ذلك اليوم واشتغلوا بالسؤال عن وقته. وقريب منه ما روي أن رجلاً من المسلمين سأل رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: متى الساعة؟ فقال له: (ماذا أعددت لها).

فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية مما يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة، فكان ذلك شيئاً من تعيين وقته بتعيين أشرطه.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ بكسر الراء وفتحها:

فبالكسر: فرع ودهش وتحير، أصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.. قال ابن كثير: ينظرون من الفرع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب.

وبالفتح: شق بصره، وهو من البريق بمعنى اللمعان. أي: لمع بصره من شدة شخوصه.

والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظام.

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: 97]. أي: دنا يوم القيامة وبدت أهواله فإذا أبصار الكفار من شدة الفرع مفتوحة لا تكاد تطرف.

والتعريف في ﴿البصر﴾ للجنس المراد به الاستغراق، أي أبصار الناس كلهم من الشدة الحاصلة في ذلك الوقت، على أنهم متفاوتون في الرعب الحاصل لهم على تفاوتهم فيما يعرضون عليه من طرائق منازلهم.

﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أريد به انطماس نوره انطماسا مستمرا بسبب تزلزله من مداره حول الأرض الدائرة حول الشمس بحيث لا ينعكس عليه نورها ولا يلوح للناس نيرا، وهو ما دل عليه قوله: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، فهذا الخسوف ليس هو خسوفه المعتاد عندما تحول الأرض بين القمر وبين مواجهته الشمس.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يجتمعان ثم يكوران، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1]، قال ابن زيد: جمعا فرمي بهما في الأرض.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: التصاق القمر بالشمس فتلتهمه الشمس لأن القمر منفصل من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشمس كالكواكب ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ وأعيد لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ إظهارا في مقام الإضمار لأن المقام لتقريعه والتعجيب في ضلاله. وكرر لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في هذه السورة خمس مرات لذلك.

﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ الفرار. أي: يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته، فالاستفهام مستعمل في التمني، أي ليت لي فراراً في مكان نجاة، ولكنه لا يستطيعه.

أو يقول قول الآيس لعلمه بأنه لا فرار حينئذ.

وذكر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع أن قوله: ﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ الخ مغن عنه، للاهتمام بذكر ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه ويستهزئون فيسألون عن وقته، وللتصريح بأن حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقت واحد.

وطوي التصريح بأن ذلك حلول يوم القيامة اكتفاء بذكر ما يدل عليه وهو قولهم ﴿أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ فكأنه قيل: حل يوم القيامة، وحضرت أهواله، ويقول الإنسان يومئذ ثم تأكد بقوله إلى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

﴿كَأَلَّا﴾ ردع له وإبطال للطمع في أن يجد للفرار سبيلاً ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ. وأصله المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.

وهذه كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: 47] أي: ليس لكم مكان تنكرون فيه، وكذا قال هاهنا ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ المرجع والمصير، أي: مستقر العباد، من نار أو جنة.. مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم، أو استقرار أمرهم، والحكم فيهم.

وهذا كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الدنيا بقرينة قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بملك ذلك اليوم.

وفي إضافة «رب» إلى ضمير النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.

وتقديم الجور لإفادة الحصر، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر. والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهاها إلى ربك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28].

﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من عمله الذي يوجب نجاته وثوابه، من الخيرات والصالحات، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24]

﴿وَأَخَّرَ﴾ ما تركه مما أمر بفعله أو نهي عن فعله في الحالين فخالف ما كلف به، وفي الحديث الشريف: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ) [البخاري]
أو كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
[الزمر:48]

قال ابن كثير: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49]
أو ما قدمه: ما عمله، وما أخره: عمل من اقتدى به بعده عملاً له، كأنه وقع منه. وتنبئة الإنسان بما قدم وأخر كناية عن مجازاته على ما فعله: إن خيراً فخير وإن سوءاً فسوء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:7]
ويحصل في ذلك الإنباء تقريع وفضح لحاله.

﴿بَل﴾ إضراب انتقالي للترقي إلى الإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله.
﴿الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله.. والهاء للمبالغة مثل هاء: علامة ونسابة، أي الإنسان عليم بصير، قوي العلم بنفسه يومئذ.
وعدي بحرف ﴿على﴾ لتضمينه معنى المراقبة وهو معنى قوله في الآية الأخرى:
﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14]
قال القاشاني: أي: حجة بينة، يشهد بعلمه، لبقاء هيئات أعماله المكتوبة عليه في نفسه، ورسوخها في ذاته، وصيرورة صفاته صور أعضائه، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج.

وقد جرت هذه الآية مجرى المثل لإيجازها ووفرة معانيها.
﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ هو بصير على نفسه حتى لو ألقى أعذاره مجادلاً عن نفسه بكل معذرة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَهُمْ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾
[غافر:52]

وقد بين تعالى بعض معاذيرهم تلك في مثل قوله تعالى:
﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:23]

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:18]

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا
إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:63]..

أي: قال الذين حق عليهم العذاب، وهم دعاة الكفر: ربنا هؤلاء الذين أضللنا،
أضللناهم كما ضللنا، تبرأنا إليك من ولايتهم ونصرتهم، ما كانوا إيانا يعبدون، وإنما كانوا
يعبدون الشياطين.

وقوله ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات:32].. أي: أضللناكم عن سبيل
الله والإيمان به، إنا كنا ضالين من قبلكم، فهلكنا؛ بسبب كفرنا، وأهلكناكم معنا.

وقوله ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:106-108].

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا
لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [تبارك:10-11].

وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان، وإنكار البعث،
منكر باطل، تنكره قلوبهم، وأنهم في دفاعهم يجادلون بالباطل. ولا غرو أن ينكر القلب
ما تدفعه الفطرة السليمة، والدين دين الفطرة.

قال الشهاب: شبه المجيء بالعدو بالبقاء الدلو في البئر للاستقاء به، فيكون فيه تشبيه
لذلك بالماء المروي للعطش.

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي، لتأخذه على عجلة، مخافة أن يتفلت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك، وإثبات حفظه في قلبك، بحيث لا يذهب عليك منه شيء. ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أن تقرأه بعد فلا تنسى.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أتممنا قراءته عليك، وتلاه عليك جبريل عن الله عز وجل، فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز، والقرينة واضحة.

﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فاستمع له وأنصت، ثم اقرأه كما أقرأك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ في الموضوعين للتكفل والتعهد ﴿بَيَانَهُ﴾ نُبَيِّنُهُ على لسانك، أو بيان ما فيه، إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

روى البخاري عن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قَالَ جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قَالَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا قَرَأَهُ.

قال ابن زيد: أي: لا تكلم بالذي أوحينا إليك حتى يقضى إليك وحيه، فإذا قضينا إليك وحيه، فتكلم به. يعني: أن هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].

قال ابن كثير: وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد، أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعليم من الله -عز وجل- لرسوله كيفية تلقيه الوحي.

وذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة -على تأويلهم المتقدم- وجوهاً:

منها: تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان - والمرء مفتون بحب العاجل - حتى جعل مخلوقاً من عَجَل، ومن محبة العاجل، وإيثاره على الآجل، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذي هو منشأ الكفر والعناد، المؤدي إلى إنكار الحشر والمعاد؛ فالنهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه، على أكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه، قاله الشهاب.

ومنها: أن عادة القرآن، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد، حيث يعرض يوم القيامة، أرفده بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً.

كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف:49]، إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف:54].

وقال في طه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:102]، إلى أن قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].

ومنها: أن أول السورة لما نزل إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ صادف أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرَّك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتداءً به.

قال الفخر الرازي: ونحوه ما لو ألقى المدرِّس على الطالب مثلاً مسألة، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له: ألقِ إليّ بالك، وتفهم ما أقول، ثم كَمَل المسألة، فمن لا يعرف السبب يقول: ليس هذا الكلام مناسب للمسألة، بخلاف من عرف ذلك. قاله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري».

****** وقال في التحرير والتنوير: والذي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا دون أن تقع فيما سبق نزوله من السور قبل هذه السورة: إن سور القرآن حين كانت قليلة كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يخشى تفلت بعض الآيات عنه فلما كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين حسب ما عده سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور، صار النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يخشى أن ينسى بعض آياتها، فلعله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخذ يحرك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطاً لحفظه وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه. فلما تكفل الله بحفظه أمره أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لما كان يلاقيه في ذلك من الشدة.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

ثم الرجوع إلى مهيع أو واسع الكلام الذي بنيت عليه السورة كما يرجع المتكلم إلى وصل كلامه بعد أن قطعه عارض أو سائل.

﴿كَلَّا﴾ ردع وإبطال. يجوز أن يكون إبطالا لما سبق في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ فأعيد ﴿كَلَّا﴾ تأكيداً لنظيره ووصلاً للكلام بإعادة آخر كلمة منه.

﴿بَلْ﴾ إضراب إبطالي يفصل ما أجمله الرد بـ ﴿كَلَّا﴾ من إبطال ما قبلها وتكذيبه.

﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ الدنيا العاجلة، بإيثار شهواتها ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي لا معاذير لهم في نفس الأمر، ولكنهم أحبوا العاجلة، أي شهوات الدنيا وتركوا الآخرة، بالإعراض عن الأعمال التي تورث منازلها، ونسيان وعيدها، وهول حسابها وجزائها. والكلام مشعر بالتوبيخ، ومناط التوبيخ هو حب العاجلة مع نبذ الآخرة، فأما لو أحب أحد العاجلة وراعى الآخرة، أي جرى على الأمر والنهي الشرعيين لم يكن مذموماً.

قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿نَاصِرَةٌ﴾ من النضارة، أي حسنة بهيّة مشرقة مسرورة جميلة من أثر النعيم والفرح.

قال تعالى في أهل السعادة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24] لأن ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مشاهدة إياه تراه عيانا، وترى جمال ذاته العلية، ونور وجهه الكريم.. إعلانا بتشريف تلك الوجوه أنما تنظر إلى الله تعالى نظرا خاصا لا يشاركها فيه من يكون دون رتبهم.

تقديم الجور على عامله للاهتمام بهذا العطاء العجيب، وليس للاختصاص لأنهم يرون بهجات كثيرة في الجنة.

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله -عز وجل- في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها.

ففي صحيح البخاري باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. عَنْ جَرِيرٍ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا).

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا). عَنْ جَرِيرٍ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ هَذَا لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟) قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَهَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟) قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟) قُلْنَا لَا. قَالَ: (فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا).

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ). [انتهى من صحيح البخاري]
وروى مسلم عن أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (جَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ آتَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ) وفي مسلم عن صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ).

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وفي حديث جابر: (.. فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْتَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلُ ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ نَنْظُرُ رَبَّنَا. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ [يعني في عرصات القيامة] قَالَ فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَبَعُونَهُ) [انتهى من صحيح مسلم]

ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنات.

قال ابن كثير: ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق.

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام.

ومن تأول ذلك بأن المراد به ﴿إِلَى﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ فقال تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضا - فقد أبعد هذا القائل النُّجعة [النجعة، بوزن الرقعة: طلب الكلاء في موضعه]، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]

قال الشافعي - رحمه الله -: "ما حَجَبَ الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه عز وجل".

ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك عن الحسن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ قال: "تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تَنْصُرَ وهي تنظر إلى الخالق". [تفسير ابن كثير]

قال ابن عاشور: ولعلماء الإسلام في ذلك أفهام مختلفة، فأما صدر الأمة وسلفها فإنهم جروا على طريقتهم التي تخلقوا بها في سيرة النبي - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الإيمان بما ورد من هذا القبيل على إجماله، وصرف أنظارهم عن التعمق في حقيقته، وإدراجه تحت أقسام الحكم العقلي، وقد سمعوا هذا ونظائره كلها أو بعضها أو قليلا منها، فما شغلوا أنفسهم به ولا طلبوا تفصيله، ولكنهم انصرفوا إلى ما هم أحق بالاعتناء وهو التهمم بإقامة الشريعة وبثها وتقرير سلطانتها، مع الجزم بتنزيه الله تعالى على اللوازم العارضة لتلك الصفات، جاعلين أمامهم المرجوع إليه في كل هذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحلة، لجهامة هيئتها، وهول ما تراه هناك من الأهوال، وأنواع العذاب والخسران.

﴿تَظُنُّ﴾ تستيقن ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقصم فقار الظهر، لشدتها وسوء حالها ووبالها. وشتان ما بين المرتبتين! وهذا المقام كقوله:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 38-42]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: 2-10] في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأُولَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأُولَى (35)

﴿كَلَّا﴾ ردع ثان على قول الإنسان: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 6]، مؤكد للردع الذي قبله في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: 20]. ومعناه زجر عن إحالة البعث فإنه واقع غير بعيد فكل أحد يشاهده حين الاحتضار للموت. وعن المغيرة بن شعبة: "يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم موته". وعن علقمة أنه حضر جنازة فلما دفن قال: "أما هذا فقد قامت قيامته" أو بمعنى «حقاً»، أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك.

﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، ولكل إنسان ترقوتان عن يمينه وعن شماله، فالجمع هنا مستعمل في غير التثنية لقصد تخفيف اللفظ، وقد أمن اللبس، لأن في تثنية ترقوة شيئاً من الثقل لا يناسب أفصح كلام، وهذا مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَعَتِ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: 4].

فيكنى ببلوغ النفس التراقي، عن القرب من الموت، فالروح إذا بلغت الحنجرة حيث تخرج الأنفاس الأخيرة فلا يسمع صوتها إلا في جهة الترقوة وهي آخر حالات الاحتضار، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: 83]

واضمارها النفس أو الروح - وإن لم يجر لها ذكر - لدلالة السياق عليها، كقول حاتم:

لعمرك ما يُغني الثراء عن الفقى ** إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقد يترك التصريح للعلم كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي
حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:32]، أي الشمس، وهكذا هنا فلمعرفتها بالقرائن ترك
التصريح بالروح أو النفس.

وقد صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام:93]..
(باسطوا أيديهم) إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفاً (أخرجوا أنفسكم) إلينا
لنقبضها.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به، وطلبوا له
ال أطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئاً. فلاستفهام بمعنى
الطلب لراقٍ أو طبيب.

والرقية: كلام خاص معتقد نفعه، يقوله قائل عند المريض، واضعاً يده في وقت
القراءة على موضع الوجع من المريض أو على رأس المريض.

وأصل الرقية: ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله،
فأصلها وارد من الأديان السماوية، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة
فألحقوها بالسحر أو بالطب، ولذلك يخلطونها من أقوال ربما كانت غير مفهومة، ومن
أشياء كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره، فاختلط أمرها بالأهم الجاهلة، وقد
جاء في الإسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات الماثورة المتقبلة من أربابها وذلك من قبيل
الدعاء.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ وأيقن الذي قد نزل ذلك به أنه فراق الدنيا والأهل والمال بالموت.
﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التوت ساقه بساقه، فلا يقدر على تحريكها.

وقيل: هما ساقاه، إذا التفتا في الكفن.. فالمعنى التفاف ساقَي المحتضر بعد موته إذ
تلف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما في ثوب الكفن فكل ساق منها ملتفة صعبة

الساق الأخرى، فالتعريف عوض عن المضاف إليه، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة.

قال الحسن البصري: ماتت رجلاه فلم تحمله، وقد كان عليها جوالا.

﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ النفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: ﴿كَأَلَا بَلْ تُحِبُّونَ

الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة:20] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

﴿يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات (فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَّمَاءٍ مُّقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهَىٰ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ). قَالَ: "فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ). كما ورد في حديث البراء الطويل.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:61-62].

﴿فَلَا﴾ الفاء للتفريع ﴿صَدَّقَ﴾ بالدين والكتاب. مشتق من التصديق، وهو المناسب لقوله بعده: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾

﴿وَلَا صَلَّى﴾ والصلاة رأس العبادات.. قال أهل العربية: «لا» هاهنا في موضع «لم»، أي: لم يصدق ولم يصل.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بدل التصديق ﴿وَتَوَلَّى﴾ بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى.

وقيل: الإعراض عن دعوته إلى النظر والتدبر في القرآن. ففيها تأكيد وزيادة معنى. دلت الآية على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة، كما يستحقهما بترك الإيمان.

﴿ثُمَّ﴾ مع هذه التقصيرات في جنب الله تعالى.

﴿ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ يتبختر في مشيته ويختال. وأصله يتمطط، أي: يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، وهي مشية المعجب بنفسه.. أي: وذهب إلى أهله مزدهيا بنفسه غير مفكر في مصيره.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 34]. وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [أي: يرجع] بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: 13-15].

قال الرازي: إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه، وفيما يتعلق بدنياه. أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين، ولكن كذب به. وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى، ولكنه تولى وأعرض. وأما ما يتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال في مشيته.

﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ كلمة تهديد وتخويف يخاطب به من أشرف على هلاك فيحث به على التحرز، أو يخاطب به من نجا ذليلا منه فينهاه عن مثله ثانيا.

وأكثر ما يستعمل مكررا، وكأنه حث على تأمل ما يتول إليه أمره ليتنبه للتحرز منه. وقيل: ويل لك، وأصله: أولاك الله ما تكره، واللام مزيدة. أو: أولى الهلاك لك فأولى، وقيل: هو مقلوب من الويل، وقيل: أولى بالعذاب وأحق به، وقيل: من الولي، وهو القرب أي: قاربه ما يهلكه.. قال الأصمعي معناه: قاربك ما تكره.

والتكرير للتأكيد، كأنه قيل: ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك.

﴿ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ أي يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى.

وجيء بحرف ﴿ثُمَّ﴾ لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد، وتهديد بأشد مما أفاده التهديد وتأكيد، كقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3-4].

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (36) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ استفهام استنكاري ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى، مع أنه الإنسان الذي أودع العقل وعُلم البيان، وغُرز في طبعه أن يعيش مجتمعاً، وحُص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً في متاهة جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته.

ومعنى هذا مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلاً على الإعادة بالبداة فقال:

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى﴾ يصب ويراق في الرحم ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً﴾ القطعة الصغيرة من الدم المنعقد.

و ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على التراخي الرتي، فإن كونه علقه أعجب من كونه نطفة لأنه صار علقه بعد أن كان ماء فاختلط بما تفرزه رحم الأنثى من البويضات فكان من مجموعهما علقه.

﴿فَخَلَقَ﴾ قَدَّر أعضائه ﴿فَسَوَّى﴾ سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّها. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ لبقاء نوعه، يعمر الدنيا إلى الأجل الذي كتبه وقدره.

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ فيوجد لهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة.. والجملة واقعة موقع النتيجة من الدليل. والاستفهام إنكار تقرير بالإثبات.

روى أبو داود عن موسى بن أبي عائشة، قال: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 40]، قَالَ: «سُبْحَانَكَ

فَبَلَى»، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: "قَالَ أَحْمَدُ: يُعْجِبُنِي فِي الْفَرِيضَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ".

وقد جاء في هذا الختام بمحسن رد العجز على الصدر، فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، ويسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلال، إلى أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحيي الموتى.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com